من معجم الحبِّ وقد صارَ رثاءً -٣-

كلمة آل الفقيد.. ألقتها د.وارفة وهب رومية (ابنة الفقيد) في حفل تأبينه في مجمع اللغة العربية بدمشق.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ الدكتور هيثم موسى حسن معاون وزير التعليم العالي، راعي الحفل الكريم.
السادة رئيس وأعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق.
السادة أساتذة كلية الآداب في جامعة دمشق.
الحضور الكريم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلُّ ألفاظِ الوداع مرّةٌ.. والموتُ مُر.. وهذه هي الحياةُ.. كما كنتَ تردّدُ دائماً يا أبي..
ولكنْ..

ما ماتَ من نزعَ البقاءَ وذكرُه بالصالحاتِ يعدُّ في الأحيـاءِ

أيُّها الغائبُ الحاضرُ..
البعيدُ.. كسربِ قطاً مهاجر..
والقريبُ.. كوردة القلب.. سلاماً..

لستُ أعلم وأنا أقفُ اليوم هنا.. كمَّ المشاعرِ التي تتنازعُني..
فمِن ذهولِ الفقد الذي تجاوزَ من الزمن المئةَ يومٍ، ولا يزال واقفاً نُصبَ أعينِنا.. مهيمناً على كلِّ لحظةٍ تمرُّ..
رافضاً أنْ يمنحنا سكينةَ الاعترافِ برحيلك..

إلى الحزنِ الذي صارَ رفيقاً لتفاصيل حياتنا اليوميةِ التي خَلَتْ من صوتِك القريرِ المطمَئنّ كاليقين..
إلى الفخر الذي لم ولن يغبْ عنا يوماً.. ونحن الذين نحملُ اسمَك نيشاناً على صدرنا، ونُعرَفُ به..

ثم إلى الامتنان الذي يملأ قلبنا تجاهَ القلوبِ التي وقفَتْ معنا.. عاشَتْ حزننا، فحملَتْ عنا بعضاً منه.

ما أضيقَ العبارةَ حين أريدُ أنْ أحدّثَ عنك يا أبي..
فكما كنتَ تقولُ – ولستُ أجدُ أصدقَ مِن حروفِكَ لأرثيكَ بها- إنَّ اللغةَ تُعاسِرُني ويُعاصيني القولُ.. كلّما هممتُ بالحديث عنك.. أيُّها الغالي الذي طوى الموتُ ما بيني وبينَه، وليس لما تطوي المنيةُ ناشرُ..

السادة الكرام..

ليس سهلاً عليَّ أن أكتبَ في رثاء أبي ووداعه..
فكما هو لكمْ المعلّمُ العابرُ للحدودِ، والمَجمَعيُّ الفذُّ، والصديقُ الوفي..
فإنّه لنا وهبٌ.. الأب الذي ليس له مثيل، وأكرمُ ما جادت به السماء علينا..
ولأهلِه.. الابنُ البارُّ، ولإخوته.. الأخُ الذي حُقَّ له أنْ يكون الأكبرَ..

وهو في الناس.. ذو الخُلُقِ الرصين والتواضعِ الجمِّ، هو العونُ لكلِّ محتاجٍ سرّاً وجهراً..
هو الصادقُ والناطقُ بالحقِّ أبداً..
وهو الكريمُ الذي أدركَ متعة العطاءِ.. فأعطى حباً، وأعطى علماً، وأعطى ثقةً واطمئناناً.. بغير حدود..

كان الحبُّ معتَقَدَهُ.. وكان يُردِّدُ ببساطته البليغة والأخاذة: "أنا أحبُّ الناس" ، وقد أكرمَهُ الله بحبِّ الناس في كلِّ بقعةٍ من الأرض زارَها، فصار له كثيرٌ من المحبين والأصدقاء.. من كلِّ جنسٍ وعرقٍ ولون..

روحُه النقيّة كانت بطاقةَ عبوره إلى القلوب، وحضورُه العذبُ كان مِفتاحاً لوجدان كلِّ من يجالسُه.

وبالرَّغم مما وهبَتْهُ إيّاهُ أعوامُه الثمانون من العلمِ والحكمة وسَعَة الأفقِ ورجاحة العقل، إلّا أنَّ براءة الفطرة ونقاءها لم يُغادراه أبداً.

هو الذي أدركَ أنَّ الموتَ وحدَهُ هو حقيقةُ الإنسانِ الحتميّةُ بعد ولادته، وعَمِلَ لهذا اليوم طيلة حياته..
فقدَّسَ العملَ وانغمس به، إيماناً منه أنّ الخلود الحقيقيَّ هو خلودُ الأعمال.

فتركَ الدنيا مُطمئنّاً، راضياً، قانعاً، هادئاً.. كنسمةٍ عبرَتْ هذه الحياة بسلام..
بعد أن أمضاها تَرحالاً في سبيل العلم، ليشاء الله أن يُغادرَها في ترحالٍ في سبيل العلم..
تاركاً لنا إرثاً إنسانياً نبيلاً لا يُقدَّرُ بثمن.

أيُّها السادة الكرام..
لم يكنْ أبي يوماً مسكوناً بهمومه الخاصة، ولا ساعياً لمصالحه الشخصية، بل عاش دوماً الهمَّ الجَمعيَّ وسخّرَ كلمتَه لأجله، فكان مدافعاً عن مبادئ الإنسانية ورسولاً للحبِّ والتآخي.
وإنّي أتحيّنُ يوم تأبينه هذا فرصةً لأُعليَ صوتَه من جديد، في دعوةٍ إلى التسامح والعيش المشتركِ بين الإنسانِ وأخيه الإنسان – الشبيه المختلف- كما عبّرَ والدي يوماً.. دعوةً لعبورِ الواقع الضيّقِ إلى الحُلمِ الرحبِ رحابةَ المستقبل.

أبي..
يطولُ الكلامُ ولا ينتهي.. فكيفَ تعرِفُ الكلماتُ حداً في وصفِ سيّدها..
وكيفَ يهدأ الرثاءُ –صديقك القديمُ- وقد أيقظتَ فيه أنيناً حزيناً لا يعرفُ هدأةً..
وكيف يسكنُ البَوحُ.. والخسارةُ "وهب"..

ستفتَقِدُك أروقةُ الجامعات، ورفوفُ المكتباتِ، وأمسيات الشعر والنقدِ..
ستفتقدُك شوارعُ محبوبتِك.. دمشق، وشطآنُ مسقط رأسك.. اللاذقية..
ستفتقدُك جلساتُ العائلة والأصدقاء..

سيفتقدُك بيتُنا.. الذي كنتَ أمانَه، بيتُنا الذي حوّلتَهُ إلى مكتبةٍ، وحوّلتَه إلى وطن..
سيفتقدك كلُّ ركن فيه..
بيتُنا الذي علّمتنا فيه الحبَّ، واستقامةَ النفس ونقاءَها، والتفاني في سبيل العلم والعمل، لنكون جديرين بإنسانيتا..

ستبقى هذه الوصايا منارةً نستدلُّ بها ونهتدي..
وسيبقى اسمكَ وطيبُ أثرِكَ يمسحُ على جباهنا في كلِّ لحظة حنين..
وينهضُ بنا لنكونَ كما يليقُ بك أنْ نكون..

أبي..
السلامُ على جسدكَ المُسجّى تحت التراب، والرحمة لروحك التي حلَّقت إلى بارئها..
السلامُ عليك يومَ وُلدتَ، ويومَ قُبضتَ إلى ربِّك، ويومَ تُبعثُ حيّا..

السادة الكرام..

إنّي إذ أفتقدُ أبي في كلِّ كلمةٍ أقولُها، فإنَّ في كلِّ كلمةٍ قلتُموها لنا بلسماً وعزاءً..
وإنّي باسمي، وباسم والدتي الدكتورة فاطمة تجور، وأخي الدكتور مرار، وعائلتي الكبيرة التي حضرت معنا اليوم، أتوجّهُ إلى مجمع اللغة العربية بدمشق ممثّلاً برئيسه الدكتور محمود السيّد بعظيم الشكر والامتنان، ليس لهذا الحفلِ التأبيني الكريم فحسب.. بل لأطيبِ ذكرياتٍ كوَّنها والدي معكم.. فكنتم نِعم الأصدقاء والزملاء.
والشكر موصول لراعي الحفل، والحضور الكريم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته